النتاج الجديد

١ ـ فنون الأدب الشعبي

تأليف : أحمد رشدي صالح

دار الفكر ، القاهرة — ١٧٣ ص .

تميزت آداب الأمم بظاهرة لفتت أنظار علماء الإجتماع والتاريخ ، هي نشوء « فاصل » بين تعبيرات الشعب عن حياته ، وتعبيرات طبقة خاصة من الشعراء والفقهاء والكتاب والمؤرخين والعلماء عن الحياة ، فقد كانت تتميز هذه الطبقة الخاصة عن الشعب بأوضاعها ، ولها تقاليدها ، وعاداتها. وأبرز أوضاعها أنها كانت قريبة من الحكام والولاة والأمراء ، بعيدة عن أصحاب الحرف والتجار والفلاحين ، وأظهر تقاليدها اعتزال الحياة العامة ، والإنصراف إلى الدرس والكتابة ، والإشتغال بعلوم اللغة والأدب والسير والتواريخ ...

ظل هذا الأمر طبيعياً إلى أن سجلت الفكرة الديمقراطية تقدماً كبيراً في شعوب أوروبا ، بعد الثورة الفرنسية الكبرى في أوائل القرن الماضي ، وإذ ذاك استيقظ الناس على « الشعب » ، كما استيقظوا على كل ما لدى « الشعب » من أشياء لم يسبق لهم أن أعاروها اهتماماً ، أو فكروا فيها من قبل .

وكان من الطبيعي أن يلتفت الأدباء إلى تعبيرات الشعب ، أي إلى ماليه من أغان وقصص وحكايات وأمثال ولهجات ورقصات... ونشأ تبعاً لذلك مدارس في النقد والبحث وعلاقة الفن بالحياة ، تنوعت وتعددت بين مؤتلف ومختلف ، فكانت نظرية « الفن للفن » التي نادى بها أسكار وايلد ، ونظرية « الفن للحياة » التي ينادي بها دعاة الديمقراطية .

وها هو الأستاذ احمد رشدي صالح يعيد بكتابه هذا ، سيرة تلك اليقظة على أدب الشعب ، ولكن في إطار مصر وشعب مصر .

يشتمل هذا الكتاب على أربعة فصول ، هي : (١) دراسة الأدب والحياة (٢) الألم . (٣) الحب والجنس . (٤) فنون الشعر . وكل فصل يشتمل على جملة موضوعات تتصل بعنوانه من قريب ومن بعيد ، فهو يتحدث مثلا في الفصل الأول عن اتصال الأدب بالحياة ، وآراء كل من طه حسين وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل ، ثم عن الفولكلور ومدارسه ، وجهود المستشرقين في العامية وأدبها ... ويتحدث في الفصل الأخير عن فن الأغنية والبكائية ، وعن الموال البلدي وتاريخه ، ويعقد مقارنة بين موال الدلتا وموال الصعيد ، وعن أغاني التخمير الدينية ... وينهي أحاديثه بذكر الزجل والموال.

هذا هو مضمون الجزء الأول . ولكن للكتاب جزءاً ثانياً يتحدث فيه المؤلف عن سائر الفنون الشعبية كالأمثال والألغاز والنوادر والحكايات والمسرحيات الشعبية .

يجب أن أشير هنا إلى قضية مهمة لم يلتفت إليها المؤلف ، وهي أن الأدب العربي لم ينفصل قط عن حياة الشعب ، إلا في عهود الانحطاط ، يوم لم يبق للعرب سلطة في بلادهم ، أي يوم تحول الحكم الى أيدي العجم والترك والبربر والتتر والمماليك . وكان أول من تحدث عن الأدب العامي والشعر العامي من علماء الاجتماع عند العرب ، هو ابن خلدون في مقدمته الشهيرة . وقد ذكر الأستاذ أمين نخلة في المقدمة التي وضعها لديوان والده « رشيد نخلة » الموسوم بـ « معنى رشيد » تاريخاً مفصلا للزجل عند العرب ، وما كان لهم من عناية بادب العامة .

على أن هناك شيئاً أكيداً ، لم يتعرض له المؤلف ، وهو أن المؤلفات التاريخية الضخمة التي سجلت تاريخ الأدب العربي كالأغاني والعقد الفريد ومعجم الأدباء لياقوت ، إنما عنيت بالشعب وأمثاله وسير أبطاله وأشعاره ومسامراته ولم تتحدث عن الملوك والولاة والخلفاء والأمراء إلا بمقدار ما لهؤلاء من صلات وعلاقات برجال العلم والأدب ، وأهل الشعر والغناء .

ثم إن الأدب الجاهلي نفسه ليس إلا تعبيراً واضحاً كل الوضوح عن «شعبية الاتجاه» في الأدب العربي ، والجاحظ الذي يمثل أبرز وجه أدبي في أوج المدنية العربية ، لايتحدث إلا عن الشعب وحياته في أكثر ما ألف وروى وحدث ...

هذا يعني أن الأدب لا ينقسم في إطار الحضارة العربية إلى شعبي وغير شعبي ، وما كان ازدواج اللغة العربية إلى فصحى وعامية إلا ظاهرة من ظواهر الحياة الإجتماعية التي لاتمس أداة البيان في جوهرها ، فأصول العامة ، واضحة في الفصحى كل الوضوح ، والأغاني الشعبية كالأمثال ، كالقصص ، كالسير ، منتشرة في جميع الأقطار العربية ، وجميع البيئآت ، مما يدل على أن هناك « وحدة » عميقة الغور ، تضم الأشتات ، وتجمع الأهداف ، وتفسر مايخفي من روابط روحيه وأدبية بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد .

تلك هي الملاحظة الوحيدة التي أغفلها المؤلف . ويظهر من بحثه أنه بذل جهوداً كبيرة في درس موضوعه ، وأعطى منها ثماراً سليمة ، شهية ، تفيد كل من يقرأ كتابه .

٢ ـ في رواق زينون

تأليف : هنري ابو فاضل

دار المكشوف ، بيروت — ٥٨ ص.

هذا كتيب أراد به مؤلفه أن « يعتز » اعتزازاً « بما قدمه عباقرة هذه البقعة الخضراء ، التي تنمق شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، من مساهمة فعالة في بناء الحضارة العالمية ، منذ أن كان في العالم حضارة »

كلنا يعلم أن الباحث أو الأديب أو المفكر إنما يكتب جلاء لحقيقة ، أو دفاعاً عن حق ، أو أقراراً لمبدأ ، أو تبياناً لقضية من قضايا الحياة أو التاريخ أو الفكر . أما أن يكتب كاتب « اعتزازاً » بشخص ، فهذا مالا يصح أن نجد له مبرراً في عالم التأليف ، لأنه يستحيل أن يكون له مبرر .

تعال الآن لندرس هذه الطريقة في الأعتزاز عند فتى لبناني يفرض فيه أن يجد في حياة وطنه وتاريخه القريب الف موضوع يفيد ، فماذا نجد ؟

نجد رجوعاً إلى القرن الرابع قبل المسيح ، ووقوفاً عند أثر من آثار قبرص ونظريات فلسفية ، قديمة أخفى عليها الدهر بكلكله ، ونقلا متواصلا عن الكتب الأجنبية ، والباحثين الأجانب ، وحكايات مجها الناس عن الأخلاق الوثنية والأفكار الوثنية البالية . وقد كان هذا كله معقولا لأن تأنس إليه أو تستمتع به لو أن المؤلف عرضه بأسلوب الباحث المدقق ، أو الفيلسوف المختص ، ولكن ما حيلتك فيه ، وهو لم يقصد غير الاعتزاز ؟ ما حيلتك فيه وهو يكتفي من العنوان « ثورة في الفكر السياسي » بالعنوان فحسب ؟

يتحدث المؤلف في هذا الكتاب الصغير عن المدرسة الرواقية التي أنشأها زينون. بعد أن درس في أثينا على يد المعنيين بهذه القضايا الفكرية ممن تأثروا خطى أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أن هذه المدرسة الفلسفية وجدت تعبيرها الأكمل في الأمبراطور الروماني ماركوس — أوريليوس . وقبله في

أحد العبيد واسمه « إبيكتاتوس » وأبرز شيء فيها هو « التشاؤم » القاتم المر ، والكذب على الذات في إلغاء الأحاسيس الأليمة ، والظهور بمظهر التجلد والتحمل ، والإيمان بالمادة .

هذا هو جوهر الفلسفة الرواقية . أما مؤسسها ، أي زينون ، فقد نشأ في قبرص ، وعاش في اثينا ، ولم يعرف أحد عنه شيئاً ذا قيمة ، ولولا إبيكتاتوس وماركوس أوريليوس على الأخص ، لأغفل الناس ذكره ، فأين هو موضع الأعتزاز به ؟

ثم ما قيمة أفكاره ، وهو الذي كان يدعو الناس إلى الانتحار ، ويزين لهم التخلص من الحياة ، ويحكي أنه لم يمت موتاً طبيعياً ، وإنما هو الذي قتل نفسه ؟ أين هي العظمة في فكره ؟ وفي خلقه ؟ وفي اتجاهه ؟ وفي مبادئه ؟

أكبر الظن أنه كان « مجنوناً » ولم يتخذ الفلسفة حرفة في ذلك العهد إلا بعد أن مارس التجارة وأخفق في مراسها ... هكذا يروى المؤلف المعتز به ؟

وإذا لم يكن مجنوناً ، فلا غرابة إذا فكرنا أنه انتحر في أواخر أيامه نتيجة إخفاقه في فهم الحياة ويأسه من تقبلها !

أيصح أن يكون مثل هذا الرجل الغامض ، البعيد ، الموغل في التشاؤم موضع فخر لإنسان ؟ ! لا أدري ! ولكني كنت أتمنى أن ينفق الأستاذ ابو فاضل وقته فيما هو أجدى وأحفل بالفرح ، وأغنى بالحياة السليمة .

٣ ـ شموع

تأليف ابراهيم العريض

دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٤٢ ص .

الأستاذ إبراهيم العريض شاعر ، وناقد للشعر . وقد سبق له أن أصدر قبل اليوم أشعاراً غير هذه في شتى الموضوعات القومية والغزلية ، ولكنه في هذه المرة يعطي « قصصاً شعرية » .

بدأ هذا الديوان ، أو هذه المجموعة من الأشعار القصصية ، بكلمة إهداء وجهها إلى فتاته الهندية ، باللغة الانكليزية ، هي قطعة من قطع الغزل الروحي الرائع ، فما من رسالة وجهت إلى فتاة تشبه هذه الرسالة ـ وهي إهداء الكتاب ـ في وصف تلك الحقيقة الأدبية الكبرى ، أعني بيان الصدق في التجربة الشعرية . فهو يقول في آخرها : « وإني لا أتوقع أن أتلقى منك جواباً عن هذه المخاطبة . ولا أشير عليك أن تفعلي شيئاً من ذلك . ولكن ينبغي أن لا تخالجك الريب حولها . إنها قلب ذهبي ألقيه عارياً ، وها هي ، كنوزه الغنية مطروحة على قدميك » .

أما لماذا وجهت هذه الرسالة بالانكليزية ، فلأن الفتاة لا تعرف العربية ، وقصة هذه الفتاة الهندية تفتتح الديوان في ١١ قصيدة ، عنوانها « بيني وبينها » مقسمة على النحو الآتي : ١ ـ إليها قبل أن أراها (حديث شعري عن صوتها الذي سمعه) ٢ ـ إليها بعد رؤيتها . ٣ ـ إليها في سبيل التعارف ٤ ـ إليها في مهرجان النصر ٥ ـ إليها جواباً على سؤال ٦ ـ إليها في حفلة عيد ميلادها . ٧ ـ إليها . . . في ليلة القدر . ٨ ـ منها ... في حقيقة الوجود . ٩ ـ إليها . وإسمعي يا جارة . ١٠ ـ منها ... بعد سهرة . ١١ ـ إليها شكراً على إهداء .

وتلي هذه الحكاية الحلوة « قصة وفاء » عنوانها (بلبل في قفص) أهداها الشاعر إلى الأستاذ مارون عبود . ثم قصة قلب ، ثم قصة « اليتيمة » من أدبنا القديم ، وهي حكاية دعد التي قدمت نفسها لصاحب أجمل قصيدة تنظم فيها ، ثم « قصة شمعة تحترق » ، إلى أن تنتهي بقصة « شبح في الظلام » بعد أن تمر بكثير من القصائد ...

هذا لون من الشاعرية القصصية الجديدة ، يتفرغ فيه الشاعر إلى تأمل الحادثة من زاوية إحساسه ويسردها سرداً شعرياً منغماً ، بحيث تصبح العواطف هنا هي الوقائع ، ولا يبقى ثمة مجال للحكم على البيت ، أو على المعنى ، أو على الخيال ، أو على الموسيقى ، أو ...

لابد لك أن تقرأ هذه القصائد ـ وكل قصيدة قصة ـ لتدرك مدى ما فيها من وهج الحس ثم لتتعرف بنفسك إلى الحادثة التي تعرضها كل قصيدة ، وإلى مدى ما فيها من شاعرية خاصة ، حتى إذا تذوقت جمال القصة ، ضمت عن جمال الإيقاع ، واضطربت بين هذه الألوان المكدسة من الجمالات في قطعة أدبية واحدة ، ذات وحدة متماسكة .

ذلك هو عذري في انني لم أستشهد . وما هو بعذر ، وإنما هو سبب منطقي معقول ، فأنا لا أريد أن أنقل إليك قصة كاملة ، تستغرق أربع صفحات من « الآداب » لأثبت لك أن ملاحظاتي صحيحة ...

يمكنك أن تقرأ ديوان « شموع » وبالقراءة وحدها تتأكد مما أقول .

عبد اللطيف شرارة

أديبات من الغرب

تأليف : الدكتور إبراهيم الكيلاني

منشورات دار الرواد بدمشق ـ ٨٥ ص

أبى الأديب السوري الكبير الدكتور إبراهيم الكيلاني وأنا أقرأ كتابه « أديبات من الغرب » أن أبقى على تساؤلي وتململي لتخلف محصولنا الفكري عن مثله في مصر والبلاد العربية ، فلما أحطت بمحتوى هذا الكتاب خف تخميني وحسباني ، واتسع أملي بما لاح لي من بشائر بعث ونمو في أدبنا الحديث ، وما كان الفتور والتخلف في الانتاج والإبداع لعقم في المواهب السورية ، وإنما لطغيان الفكر الإقتصادية وانصراف المرجوين والموهوبين عن الكتابة والتأليف إلا فيما كان مضمون التعويض والتصريف ، لاتصاله بالتدريس وقيام الهيئات الرسمية بنشره ، على أن هنالك أسباباً أخرى لفتور الحياة الأدبية لم تتغير منذ عهد بعيد ولا مجال في هذه الكلمة للبحث فيها .

أما الكتب التي ردتني إلى الأمل والبشرى فهي على قلتها برهان حركة جديدة تساير الوعي الفكري الراهن ، منها « أديبات من الغرب » لمؤلفه الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني .

ألقى المؤلف كتابه أحاديث التزم فيها التبسط والحكاية ، بقدر ما اجتنب البحث المنهجي الجاف إيثاراً لمتعة المستمع لها والملتمس في قراءتها السيرة الشائقة والصورة القريبة ، ولعله أراد أن يطلعنا على الملامح البارزة في ناحية من الأدب النسوي المعاصر ، فجاءت هذه الملامح في سير أربع من نوابغ الغربيات مثلت كل منها لوناً في التعبير وأداء في التصوير شف عن طبيعتها ومزاجها ودل على طموحها وطاقتها ، وقد بدأ المؤلف كتابه بالأديبة التي

فقدها الأدب المعاصر منذ أعوام قريبة ، وكانت درة أيامها بنضرة الفن ونفاذ الفكر والشعور وصراحة الأسلوب حتى بلغ من اعتزاز قومها لأدبها أن جعلوها رئيسة لمجمع غونكور ، وكان لموتها بعد عمر طويل صدى بعيد هز عالم الفكر في الشرق والغرب . ولقد أتقن المؤلف دراسته وتمحيصه لأدب هذه الكاتبة الخالدة التي شهد لها بالتفوق عبقري قومها بول فاليري حين أرسل اليها قائلا : « إلى كوليت الوحيدة من بنات جنسها التي عرفت أن الكتابة فن ؛ وها هي ذي من ملكت ناصية هذا الفن حتى جعلت كثيراً من الرجال يخجلون لجهلهم هذه الحقيقة »

كانت هذه الأديبة الفرنسية تعنى كل العناية بالتعبير الفني واختيار الكلمة فقدر هذه العناية أديب مبدع مثلها أثنى عليها خيراً وتكريما دون تحيز إلى الجنس والعنصر ولا استخفاف بالمواهب النسوية كما يفعل أكثر أدبائنا .

ثم جاء المؤلف على سيرة الأديبة جورج صاند التي عاشت في القرن التاسع عشر وعرفتها مجالس الفكر والنقد الأدبي أبرز الكاتبات أناقة وتوقداً ، وقصتها معروفة مع الشاعر الفريد دوموسيه الذي أثرت في حياته تأثيراً بالغاً حتى قال فيها قصيدته « الليالي » وإن اختلفا في المذاهب الفكرية والسياسية ، إذ كان نزاعاً للنظام الملكي وكانت هي ذات شعبية وجمهورية اشتراكية ، ولها علاقة ومودة مع الناقد الأدبي سانت بوف الذي كانت توثره وتكشف له عن سريرتها كما تطالعه بآثارها ، وقد اتهمت بالمغامرات العاطفية والفنية . وإزجاء المصالي لموهوبين في الموسيقى والتصوير ، عرض لبعضها الأديب الكيلاني واستنبط منها صوراً رائعة لهذه الأديبة المتوقدة حساً وألمعية .

اما الشاعرة مارسلين فالموز ، فقد احاط المؤلف بحياتها وسيرتها وأشار إلى شعرها الصراح الذي كشفت فيه عن خفايا نفسها ، وقد أبدى إعجابه بتعبيرها الفني الناغم ووفائها القائم على العطاء والوفاء .

وجاء حديث الاستاذ الكيلاني عن الشاعرة الأميرة آنا دونواي ممتعاً جامعاً مواجاً برأيه في المرأة وانطباعاته الذهنية ومطالعاته العميقة . على أن هذه الشاعرة لم تكن في اعتقاده إلا كأمثالها من النساء في الشرق والغرب ، صادرة عن إحساس عميم ومعرفة حدسية بعيدة عن التفكير المنطقي والمدارك المجردة والتأمل المستغرق ، ثم التمس المؤلف للمرأة معذرة في قلة المقدرة على مجاراة الرجل في الخصائص الفكرية والأبحاث العلمية والنظامية وإن تكن أوعى منه لقضايا الشعور والغريزة وأقدر على الخيال والأحلام .

وهذا الرأي في المرأة وضحه الدكتور الكيلاني في مقدمة كتابه إذ رأى أن ليس من طبع المرأة وفطرتها الابتكار والإبداع ، فهي تمارس الموسيقى ولا تجيد تأليف القطع الموسيقية وتتقن التمثيل ولا تحسن تأليف المسرحيات ، غير انها تبعاً لتكوينها الجسمي والنفسي استطاعت أن تبرز في موهبة الشعر الغنائي فجعلته تعبيراً عن احساسها وآمالها ، وفي موهبة الفن الروائي الذي اتخذته انطلاقاً من واقعها الأليم إلى الجمع بين الحقيقة والخيال .

والظاهر أن المعاول التي أراد بعض أعداء المرأة في مصر والشام أن يهدموها بها أو الذين ادعوا هذه العداوة تشفياً وتهكماً ثم فترت فيهم الهمة والضغينة أو تغير رأيهم فسكتوا قد أودعوها عند أديبنا الكيلاني وهو معدود في بلادنا من أنصار المتعلمات والمثقفات .

كان هذا الرأي الجائر من الاستاذ العقاد ثم اتخذه الاستاذ الحكيم مذهباً قبل أن يتزوج وتنبسط له الشهرة على أكتاف النساء ، أما الدكتور الكيلاني فقد زاد في ضرب المعول هدماً بعد أن تقدمت المرأة الغربية والعربية في الثقافة العلمية والمطارحة العقلية ، وهو يسمع أخبار اللاتي تمرسن في مصر ولبنان بأبحاث في الذرة وارتحلن إلى بعيد للتعمق في هذا الموضوع ، ولو اطلعت على هذا الرأي الأقتم صديقتي الدكتورة « بنت الشاطئ » لجاءت المولف بفكرتها المنهجية ، ولتقدمت جامعيات فضليات بآثارهن المرموقة التي دلت على التفوق في موضوعات فكرية ودراسات تجريبية منارها العقل المنظم والمنهاج المحتوم .

إن البرهان تلو البرهان على تقدم المرأة في عملها وأدبها يدحض حجة الزاعمين بتخلفها في خصائص الفكر وإن كنا من القائلين بأن الرجل سبقها إلى الإنتاج والإبداع لأنه وجد مواهبه واستغلها قبل أن تتحرر المرأة من عبوديات الأجيال والرجال .

على أن مقدمة المؤلف بما فيها من تحامل على المرأة بغير نية سيئة ترتد باسمة أو متهكمة أمام إهدائه الكتاب إلى زوجته الفضلى ، ولا أدري حين تقرأ كلمتي هذه هل ستكون إلى جانبي فتكيل له العقاب وهو الكيلاني ، أو تلتمس له المعاذير لهذه الهدية النفيسة .

ومهما يكن الأمر فان كتاب « أديبات من الغرب » على ضآلة حجمه أثر ممتع نافع دل على إتقان مؤلفه فن السيرة والتحليل ، كما ظهرت فيه ثقافته الغربية الواسعة ، وطبيعته في البعد عن التكلف في الأداء والتعبير .

دمشق **وداد سكاكيني**

صراخ ... في ليل طويل

بقلم جبرا إبراهيم جبرا

مطبعة العاني بغداد — ١٠٤ ص

ليس الأدب الا بضاعة كاسدة . بضاعة المترفين الكسالى . وليس هو الا أداة تسلية وتسرية . وهذا القول ، وان اوردته ، فلست ممن يؤمنون به او يأبهون له وان كان بعض المحترفين يرى الأدب تبخيراً وتعفير كلمة . ومتصيدو الجمال ، كمتصيدي المعرفة ، كثيرون . الا انهم قلة ، هؤلاء الذين اوتوا براعة التصيد ورشاقة الاستئثار .

والادب في العالم العربي ، وفي هذه الفترة ، تتجاذبه تيارات شتى ، وتتنازعه آفاق مختلفة . فمن دعوة الى التزام والى غير التزام . ومن دعوة الى واقعية ... الى ما عداها .

ويكاد يضيع الأدب في ترهات واراجيف . الا في القليل القليل . كأني بالأديب يتقيد فيما يوضع من قيود ، فينسى سجيته ويحد من انطلاقة ضميره ووعيه !

ويقفز جبرا ابراهيم جبرا من بين هؤلاء المتصايحين دون ان تنفرج شفتاه عن كلمة . مثلما قفزت « سمية » —في «صراخ في ليل طويل » — من بين ذكريات البطل لتتجسد في احلامه امرأة من لحم ودم .

ويطلع على الناس بكتاب وضعه — والعهدة على التاريخ الوارد نهاية الرواية — منذ عشر سنوات .

اول ما يطالعك في هذا الكتاب اسلوب سلس لا تملك الا ان تستسيغه ، وتندفع مع صفحاته تلتهم سطوره .

قد تسخر من المؤلف . اذ لا تلبث ان تشعر انك لم تقبض على شيء سوى تخدير لذيذ استحوذ عليك .

واذا بك تعيد قراءته، ان كنت من غير المتأففين ، فاذا بابتسامة السخرية تنتصب من جديد وبالاعجاب يشتد . سخرية من نفسك هذه المرة وليست من المؤلف .

والحديث عن الاسلوب يحرك الى التساؤل ان كان المؤلف متأثراً باسلوب فوكنر الذي حلله هو بقلمه منذ اكثر من سنتين (*) .

لكن هذا قد لا يمنعك ، ولم يمنعني ، من ابداء بعض « مآخذ » وان كان استاذنا الكبير مارون عبود عدها فريدة النوع بين القصص العربية التي تدفعها المطابع ، وقد وضعها فوق « دعاء الكروان » لطه حسين .

هي قصة كاتب صحفي يشتغل الى جانب عمله — في اعداد تاريخ حافل لعائلة ارستقراطية يجري الدم الأزرق في عروقها ... حسب طلب « عنايت هانم » . وتشاء الصدفة — فهي تلعب دورها — ان يحب فتاة من بنات الذوات تحت اشجار صنوبر التقيا ، وقد جمع بينهما الهرب من المطر ، فخلع عليها معطفه واقنعها بالذهاب معه الى مسكنه لتجفف ثيابها ، فذهبت .

الى هنا قد تكون الحادثة في حدود المعقول . اما كيف ترضى غريبة بالاستحمام في بيت صديق لم يتجاوز عمر صداقته ساعة او بعض ساعة ، فهذا ما يثير التساؤل .

« واخرجت سجائري وقلت : اتدخنين ؟

— لا . ولكنني سأدخن الآن . »

ترى هل يخفف هذا من التساؤل ، أم يزيده ؟

ويتقدم امين يخطبها من ابيها ، الذي كاد يشتغل مستخدماً في محله ، فتلعب الصدفة ، او الغرابة ، دوراً جديداً .

كان امين ينتظر دخول الأب الى ردهة الاستقبال حين جاءت امرأة العم (فيما بعد) . ودار حديث اقرب الى المحاضرة التي تكاد تلمح المؤلف يطل عليك من خلالها . وبكلمة اخرى لا تخلو من لهجة خطابية .

ثارت زوجة سليمان شنوب وزوجها (ولم اقل ثار شنوب وزوجته) على الخاطب ورمياه بكل فرية وازدراء . وصفعت سمية في هذا الجو المحموم . ثم اذ بها تهدد الوالدين بالهرب مع الحبيب ، فتستبقيه لحظات ، على اثر طرده ريثما تعد حقيبة وتنطلق معه .

وقع كل هذا تحت سمع الوالدين وبصرهما . فما اختلجا . بل ضاعا وراء سجف اسدلها المؤلف . اهو صمت الدهشة ؟

كيف يحدث هذا التداعي ؟ اين منطق الحوادث ؟ منذ لحظات كانا في حمأة الغضب . والآن ينتظر الشاب على الدرج ، ولا من يقول له : انصرف . ولا من يتبعها هاتفاً : قفا . الى أين ؟

وبعد هذا الهرب الاضطراري : « قدم والدها لزيارتنا ذات مساء ، وفي الصباح تسلمنا منها بيانو ... مع رسالة قصيرة موجهة الى ولدينا المحبوبين . وبعد يومين جاءا الينا ثانية ليحولا احدى الدور التي يملكانها باسم سمية ، وبذلك يتحول ايجارها السنوي الينا . »

فكيف يمكن ان يحدث هذا ، بلا تمهيد ، حتى ودون زيارة او كلمة شكر بعد مجيء البيانو ... فهل تبرر كلمة « لشد ما دهشنا » التي سبقت هذا الكلام ، هذه الحوادث ؟

أأتساءل عن كيفية اختفاء سمية بعد ذلك ، وعن « عودتها » التي تغلفها الضبابية ؟ وان كان استحضارها ، بالفعل ، ناجحاً ؟

لعل هذا ما تقتضيه الطريقة التي اتبعها المؤلف . فاغفل التفاصيل عن قصد .

واذ أسوق هذا اعترف بان القصة، كفن ، لا تخلو من تناقض بالضرورة . فليست عرضاً لنظريات فلسفية تقتضي الربط والاستنتاج . انما هي تعبير عن حياة في مختلف اشكالها . ومتى كانت الحياة تعرف المنطق والمبررات ؟

والتناقض في قصته ، بهذا المفهوم ، من الحياة في الصميم ، فهو يبقى في حدود الاحتمال ولا يتعداه الى نطاق الاستحالة . والاعتراض على الحياة ، على تناقضها ، غلو وهذيان .

ولا احب ان اغفل عن الاهلة الكثيرة — وان استعملتها — المزروعة هنا وهناك ، بمناسبة وبدون مناسبة . فما قيمتها اذ تسور كلمة (فاجفلت) مثلا . اللهم الا لفت النظر ؟

ولا ابغي ان اوغل في مسارب المآخذ . فاعترف باني قد أضيع . واذ اذكر هذا لايفوتني ان اشير ، ولو باقتضاب ، الى امور وفق المؤلف اليها .

فالقصة ، استدرك ، تبدو مترابطة الحوادث ، متراكضة المشاهد . فهو لاينسى ان يزرع نهاية قصته ، كالالغام لاتدري متى تنفجر بين يديك وكيف . ففي صفحة ٣١ يقول :

« وافيق بعد ساعات فاجد ان دموعها قد بللت خدي ، كأن حزناً يتقاذفها تعجز عن وصفه . وعندما يساورني القلق على ذلك الشوق الغامض الذي يعنيها فأشعر بانه — رغم كلفها بي — يبتعد بها عني . »

وقد وفق الى غمزات رائعة فاليك بهذه اللوحة :

« رآني عمر ... وصاح :

—هاهوذا امين سماع قادماً يحمل وجها كوجه المسيح ، اين احتجبت طيلة هذه المدة ؟

— في كهف على الجبل .

فقال رشيد : مع الثعالب وبنات آوى ولا ريب ؟

فصححه فارس قائلا : مع اجواق من الملائكة . وهل يقيم في برج امين الا الملائكة ؟ .

فضحكت وقلت : ولكنه برج من طين .

وجاء الغلام فطلبنا زجاجات من البيرة .

وسألني عمر : وماذا كانت ترتيلة الملائكة ؟

فاجبت : في مدح الكتابة المأجورة للصحف . »

قد يكون ناجحاً ، تمام النجاح ، في ادارة الحديث على لسان ابطاله . لكن هذا لا يسلم من تدخل يلقى في روع القارئ : « فقلت لنفسي ان رشيداً وان بالغ في اهمية بعض ما لدينا ، اصاب الهدف لاول مرة في حياته » . انما يبدو تدخلا مكشوفاً بتقييده . (بكلمتي : في حياته) وان لم تنقصه الخفة واللباقة .

لاشك ان القصة تعالج موضوعاً ، على تفاهة حوادثه ، طريفاً . هو موضوع وجودي يتعرض لعلاقات الناس . مما يذكرنا ، مرة اخرى ، بقصة فوكنر « الصخب والعنف » التي تعالج موضوعاً ذا قرابة مع قصة جبرا ...

وجبرا ، ككل فنان ، يدعك تستنتج انت بنفسك ، من خلال عرضه ، ما يروق اولا يروق لك .

آراؤه جريئة في الكشف عن علاقة قطبي الحياة ، المرأة والرجل ، فهو لايتقنع ولا يخاف . بل يبدي رأيه — على لسان ابطاله ، طبعاً — بشيء من عنف الصراحة ولطف الحقيقة ، معنياً باظهار الاثر الذي تخلفه الخيانة الزوجية في حياة الرجل . وتعكس تصرفات امين هذا بجلاء .

قلت ان حوادث الرواية تافهة . ولعل المؤلف اختار هذا ، عن تصميم ،

* راجع « الآداب » ١٩٥٤ — العدد الأول ، السنة الثانية .

ليصفع هؤلاء المتبرمين بالمواضيع ، الجبناء عن خوض المشكلات التي يصطدم بها هذا الجيل القلق ، العنيد .

أسلوب جبرا في « صراخ في ليل طويل » اسلوب لا تنقصه الطلاوة ، ولا تعوزه الرشاقة ، فهو متوثب الاداء ، نابض الحرارة . ولعل المآخذ عليه هي كالعتاب من التطام الماء الجاري بين حجاره ، او كهبوطه في فجوات لكنه رغم ذلك يبقى جارياً الى ان يبلغ البحر ، غايته .

عادل الاعور

الوفـــاء المر

مجموعة قصصية بقلم محمد محمد لقمة

المطبعة المنيرية – القاهرة – ١٨٠ ص

هذه مجموعة قصصية يقول عنها كاتبها : « حسبي أن هذا الكتاب اتجاه جديد في صياغة القصة والمسرحية ، وارتفاع كبير بمعنى الفن والأدب » . وحين تقرأ محتويات الكتاب وتراجع نفسك على ضوء العبارة السالفة ، تأسف لهذه المبالغة من الكاتب وتتمنى أن يقدم الكتاب والقصاص أعمالهم في شيء من الشجاعة والصدق والإخلاص : الإخلاص للفن والإخلاص للأدب . والحق أن هذه المجموعة غنية بالمضمون بقدر ماهي مفككة في الصياغة . وحين يتناولها المؤرخ –أي مؤرخ أدبي – ليحدد زمانها في التطور لايستطيع أن يضعها في زمان غير تلك الفترة التي تخلص فيها الأدب العربي من المقامة وبدأ يتحرر من قيود السجع ويلفت المضمون إلى الواقع الاجتماعي وإن فشلت صياغة هذا المضمون كما يريد الفن .

إن أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصلح فترة زمنية لهذه المجموعة حين كان « المويلحي » « والمنفلوطي » « وجبران » يضعون « حجر الأساس » للقصة العربية الحديثة . إنك تحس بعد قراءة هذه المجموعة أن اشخاصها جامدون يحركهم الكاتب كما يحرك أصحاب « صناديق العجب » صور « الزناتي خليفة » و « أبي زيد الهلالي » أمام الصغار .

إن الأستاذ محمد لقمة يحدثك عن مشاكل كثيرة : عن البطالة وهي مشكلة المجتمع الحديث . عن التشرد .. عن الخير والشر .. الخ ويضع امامك صوراً تاريخية عن « الوفاء » .. ومناقشات أزهرية خرجت من أروقة الأزهر قبل ان تجري على لسان « عقبة » « والوليد » و« أبي سفيان » و « أبي جهل ». ففي تمثيلية « من أعباء الدعوات » يجري المؤلف على لسان أبطاله هذا الحوار بعد أن تسمع قريش صوت محمد يتلو : « أولم ير الأنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ... الخ »

الوليد : إنه ليغل جهودك للبعث ياأبي . إذ يذكر أن الذي يبعثك ثانية هو الذي أنشأك أول مرة . والاعادة أسهل من الانشاء .

أبو سفيان : وأعجب من هذا انقداح النار من الشجر الأخضر فانانقداح النار مع الماء مع مابينهما من تضاد أصعب كثيراً من التعاقب بين الحياة والموت .

أبولهب : أجل يا أبا سفيان . إن من يقدر على الجمع بين الضدين أقدر على ايجادهما متعاقبين .

ما هذا يا صديقي الأديب ؟! إنك تجلس في مسجد وتعظ الناس اكثر منك فناناً تصب الحوار لترسم وتكشف وتحدد أبعاد الشخصية . إن اول عيب تراه واضحاً في هذه المجموعة هو أن كاتبها يكتب قصصه كما تتوارد في خاطره لاكما ينبغي أن تكون عليه من فنية وأصالة . ويهتم بترتيب الجمل وأناقتها واختيار اللفظة بمعناها « القاموسي» ضارباً بالفن القصصي عرض الحائط . فهل هذا هو الأرتفاع بالفن يا صديقي العزيز ؟ في تمثيلية « الوفاء المر » يقف الشيخ امام جثة ولده صمصام القتيل ويرثيه : « ولدي وفلذة كبدي أهكذا وفي غمضة عين وخفقة قلب أتلفت نحوك فلا ألقاك وأتفقد شخصك فلا أراك ... أهكذا تتركني وحيداً منفرداً لا أنيس ولا جليس .. لا صديق ولا رفيق. أعاني الوحشة وأقاسي الوحدة » ... الخ .فهل هذا الأسلوب يلقي ظلالا على الشخصية ويحدد أبعاد رجل قتل ولده أم أنها مرثية تصلح أن يلقيها مكرم عبيد الخطيب المصري في حفلة تأبين ؟

والعيب الثاني الذي تتميز به هذه المجموعة هو ما يمكن أن يسمى « باتساع الرقعة » فأرضية كل قصة في هذه المجموعة فسيحة جداً تصلح لروايات كبيرة . ولكن الكاتب أوقف على هذه الأرضية شخوصاً باهتة ، وكل جملة تؤكد الخط الباهت ولا تلقى ظلا أو تجسم شيئاً .

إن المجموعة يمكن أن تندرج في التقسيم القصصي لا الى القصص القصيرة ولا إلى الروايات الكبيرة . ومن هنا جاء « اتساع الرقعة ». إن مثل هذه القصص يجب أن تكون قليلة الشخصيات وحسناً فعل الأستاذ لقمة ، ولكنه لم يلق أضواء قوية على شخصياته فجاءت قصصه وجلها فراغ .

والعيب الثالث في هذه المجموعة هو افتعال التجارب والبعد عن روح العصر . فتمثيلية « الوفاء المر » تقرأها فتجد أنها قصة شاب عربي يدعى « صمصام » خرج فشاهد شاباً اسبانياً يقاتل آخر عربياً فتدخل في الأمر ولكن الشاب الأسباني انتهز فرصة قتل فيها «صمصاماً» وفر هارباً ولجأ دون أن يدري الى شيخ عربي خوفاً من مطاردة أصدقاء صمصام . وظهر أخيراً أن هذا الشيخ هو بعينه والد القتيل . فهل ينتقم لولده من ضيفه أم يعفو عنه حرصاً على وفائه ؟

إنك لو قرأت القصة لما أحسست بأي انفعال أكثر مما تقرأ هذا الخبر فهل هذا هو الأنفعال الذي يصاحب التجربة في العمل الأدبي ؟ .. انه افتعال لتجارب مضرة بالواقع العربي الحديث بعيدة عن روح العصر الذي تتشابك فيه المصالح وتستقر فيه المطامع .. وتتلاهم فيه القوميات .

لماذا نلقن الوعي العربي الحديث مثل هذا الكلام والصهيونية كل يوم تهددنا والاستعمار يتربص بنا ؟ إننا يجب أن ننفخ في الشباب العربي روح الثأر ونعلمه الاهتمام بحياته وعدم السماح لأي مخلوق أن ينتهكها . فهل هذه القصة تفيدنا في هذا العصر ؟ وفي قصة « البطالة » نجد الكاتب الفاضل يرسم شخصية « محمود» الموظف الذي فصل من عمله بتهمة الاختلاس .. يرسمه من الخارج كما يفعل الرسام حين يصنع لوحته على الحائط ويصمم شخصياته ببعض الخطوط دون أن يلقى ظلالا سوى جمل متلاحقة موسيقية الايقاع على طريقة «الزيات» في كتابة المقالات . إنه لم يستطع أن يربط إحساسه بالآخرين ولم يفعل أكثر من ربط فكره بغريمه الحقيقي وجعل يجري على لسان « محمود » كل أحداثها وأزمتها دون أن يتحرك وكأنه رجل جلس يشرب قهوة ويحدث زميله ببعض الصرخات إن الـ Back ground في هذه القصة فسيح أيضاً وليس في القصة حادثة على الاطلاق . فمن هو بطل القصة « محمود » ؟ .. إنه موظف يقول أو يصيح : أنا فصلت.. أنا فصلت فعلمنا خبره دون أن نعرف قصته وظروفه وملابساته والجو والصراع والحبكة والاطار الذي يبرز لنا الهيكل العام .

إن قصة « البطالة » كان يجب أن تكون أرضيتها ذلك المجتمع الحديث من العمال الذي يتصارع مع الآلة ومع أصحاب العمل ورؤوس الأموال الضخمة

كتب وردت الى المجلة

[وسينقد بعضها في اعداد قادمة]

* المسرحية في الادب العربي الحديث .
بقلم الدكتور محمد يوسف نجم
دراسة – دار بيروت للطباعة والنشر – ٥١٢ ص

* القضية الفلسطينية
بقلم اكرم زعيتر
دراسة – دار المعارف بمصر – ٣٢٠ ص

* Liberté au Libération ? — par Mohamed Aziz Lahbabi — Aubier Editions Montaigne, Paris 254 p.

* A la recherche de nos valeurs — par Joseph Abou Rizk — 93 p.

* توما الأكويني بقلم ميخائيل ضومط
دراسة – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت – ١٤٨ ص

* ازمة التمدن العربي بقلم محمد وهبي
دراسة – دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩١ ص

* كيف تحل مشكلاتك تأليف سيستور وفان دوسن
ترجمة السيد محمد عثمان – مكتبة النهضة المصرية – ٩٤ ص

* الحان الفجر بقلم عبد الله النفيسي
مجموعة شعر – مطبعة حداد (بصرة) – ٦٤ ص

* محاضرات الندوة اللبنانية
السنة العاشرة ، النشرة الاولى (٥ محاضرات)

* مشاكل الادب والفن بقلم ماوتسي تونغ
ترجمة كمال عبد الحليم – دار الفكر القاهرة – ٦٤ ص

* لاينس بقلم عبد الرحمن ابو قوس
مسرحية – مطبعة المعارف – حلب – ٤٢ ص

* محاضرات الموسم الثقافي الأول (١٩٥٥) لمعارف الكويت
نشر دار المعارف في القاهرة – ٢٦٨ ص

* قصائد من السودان
بقلم جيلي عبدالرحمن وتاج السر
ديوان – دار الفكر ، القاهرة – ٦٢ ص

* رواية آل السموأل بقلم الأب خليل اده اليسوعي
رواية – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت – ٧١ ص

* مع الشابي بقلم محمد الحليوي
دراسة – كتاب البعث ، تونس – ١٤٤ ص

* الروم وصلاتهم بالعرب بقلم الدكتور اسد رستم
دراسة – دار المكشوف ، بيروت – ٣٥٦ ص

* الآباء المراهقون بقلم احمد شمس الدين
مجموعة قصص – مطبوعات حمد ، بيروت – ٩٦ ص .

* مع الشعب الإيراني بقلم مهدي جاسم
دراسة – مطبعة دار المعرفة ، بغداد – ٥٦ ص

* سوانح بقلم توفيق حسن الشرتوني
مطابع سميا في بيروت – ١٦٠ ص

* مع الناس بقلم محمود سيف الدين الايراني
قصص – دار النشر والتوزيع والتعهدات ، عمان – ١٩٠ ص

فتصور أزماتهم وظروفهم وحياتهم من خلال هذا الصراع وتصور لنا الألم والبؤس والحرمان والأجواء النفسية الطامحة بدلا من هذا الحل القائم على الصدفة والوساوس التي تنتاب « محمود ». ولو أن المؤلف الفاضل شاهد فيلم « العصر الحديث » لشارلي شابلن لتغيرت نظرته إلى مشكلة البطالة ولأحسها احساساً آخر ، وانفعل بها انفعالا أعمق ولما كتب هذه القصة التي أخذت نصيباً كبيراً من كتابه .

والعيب الرابع في هذه المجموعة هو : عدم منطقية بعض القصص . ففي قصة البطالة نجد « محمود » يعود الى بيته مفصولا من عمله ولكننا نفاجأ برغبة المؤلف في أن يعري اولاده جميعاً من الكساء والحذاء فهذا يريد بدلة وذاك يريد شنطة وذاك يريد ... الخ حتى زوجته أرادت مصروفات الحمل من داية و ... و ... الخ . فهل هذا معقول في وقت واحد ؟ وفي مسرحية « الوفاء المر » نجد والد صمصام يقلق لمجرد خروج ولده . فهل كان العرب الذين نشأوا في الصحراء وتعود أبناؤهم القنص والصيد .. هل كان غيابهم يثير اشفاقاً عند الآباء ؟ وفي مسرحية « من أعباء الدعوات » نجد المنطقية منعدمة اطلاقاً فالمسرحية عبارة عن دردشة بين زعماء قريش الغرض منها التسفيه والتحقير من شخصية « محمد » .

والعيب الخامس هو اللغة والاسلوب .

فالكاتب الفاضل يكتب قصصه بأسلوب جامد ، والفاظ متحجرة ومن هنا جاء أسلوبه بعيداً عن الأسلوب القصصي واتسمت ألفاظه بصلابتها وتراكمها وارتبطت الجمل الكثيرة بمعنى واحد دون أن تلقى أضواء نفسية أو تكشف الشخصية . وإن اغتفرنا مثل هذا الجمود في خطب « أبي جهل » و « وأبي سفيان » فاننا لا نغتفر مثل هذا الأسلوب في مسرحية « حياة الصعاليك » . ولست بصدد أن أثير مشكلة « الفصحى والعامية » فمازال النقاد والأدباء المصريون يبحثون المشكلة ويناقشون فيها ولم ينتهوا بعد إلى حل مقنع ولكني لا أفهم أن يتكلم « بندق » و « سيدهم » و « عليوة » و « وحيد » بمثل هذا الكلام المنمق والتأملات العالية .

ولعل أبرع قصة في هذه المجموعة هي : « عفة وايمان » وبطلها الشيخ « محمد » الطالب الأزهري الذي دخلت عليه فتاة لم يدر لماذا دخلت فنامت واصطرعت في نفس الشاب قوى الخير والشر ولكنه تغلب على شره ونجحت قوى إيمانه فحافظ عليها وأعادها إلى أبيها .. وأنتهت القصة بالزواج . في هذه القصة ظلال قوية عن البيئة التي يعيش فيها الطالب الأزهري الرقيق الحال . وفيها صدق . غير انني لا أستسيغ أن فتاة دعيت الى بيت خالتها وغضبت فخرجت مهمومة لدرجة أن تفقد الطريق .. وتفقد منزلها . إن القاعدة السيكلوجية تقرر أن الانسان ما دام يعرف طريقا ما وتعود على السير فيه مراراً وتكراراً فانه يستطيع تعرفه آلياً حتى ولو كان غارقاً في السرحان . إن هذه القصة كانت تحتاج إلى سبب آخر يعلل لماذا دخلت الفتاة حجرة الشيخ « محمد »

وبعد : فما احسب أني تجنيت على صديقي الاستاذ محمد محمد لقمة بهذا النقد ولكني كنت موضوعياً ولا يسعني إلا أن أهنئه على هذه المجموعة التي وجدت مكانها في المكتبة العربية .

ولي رجاء لعل الكاتب الفاضل يتقبله هو أن يقرأ كثيراً من الأدب القصصي العالمي وأن يدرس بعض الأعمال الأدبية التي ظهرت لبعض الروائيين العرب أمثال : « نجيب محفوظ » و « سهيل إدريس » و « يحيى حقي » و « يوسف إدريس » .. وغيرهم .

القاهرة **عبد العزيز عبد الفتاح محمود**